تقديم **كتاب رويديجر زافرانسكى الى القارئ العربى**

تبدو قضية صراع الحضارات بعد قراءة هذا الكتاب مسألة نسبية للغاية إن لم تكن مشكوك فى صحتها: ففى كثير من الموضوعات الثقافية الأساسية تظهر لنا رؤى مشتركة بين عالم شيللر وعالمنا العربى المعاصر. ولاتنتفى صحة هذه الملاحظة بالرد بأن العالم العربى متخلف إذن عن العالم الأوروبى المعاصر بماءتى عام على الأقل؛ فأوروبا مازالت تتعامل حتى الآن مع عالم شيللر دون أن تعتبره متخلفاً، وإلا لما كان هذا الكتاب.

ويتجلى تقارب الرؤى فى بعض المسائل الثقافية بين عالم شيللر وعالمنا فى الموقف من العلاقة بين المادة والروح : بقى الصراع بين قطبى المادة والروح فى قلب الطبيب والكاتب شيللر دون أن يحسم. ورغم أن الطبيب شيللر قد لمس بنفسه سطوة المادة، إلا أن المفكر شيللر قد رفض بشدة منذ بداية كتاباته فكرة غلبة المادة على الروح. وعندما لازمه المرض فى الفترة الأخيرة من حياته، كان بقاؤه على قيد الحياة مرهوناً بالإعتقاد فى تفوق الروح على المادة، وهو ما ذهب إليه تقرير الطبيب الشرعى بعد وفاته.

ويترتب على الإعتقاد فى تفوق الروح على المادة الحضور الدائم للمشاعر الدينية الخاصة والعامة والتى أحاطت بشيللر فى بيت أبويه وفى العالم المحيط به. ففى سيادة المنظور الميتافيزيقى الذى يتخلل كل مجالات الحياة يقترب عالم شيللر من عالم القارئ العربى بدرجة كبيرة.

كذلك نرى فى الموقف من العلاقة بين المثال والتاريخ وجهاً آخر من أوجه التقارب بين عالم شيللر وعالم قارئنا العربى المعاصر، فهنا وهناك تمسك بقيم يراد لها الثبات ضد تيار المتغيرات التاريخية الجارف. وما كان لنظرية الفن الكلاسيكى المبنية على قيم جمالية وأخلاقية ثابتة أن تكون بدون الإعتقاد فى مطلقية القيم. ويبين الكتاب كيف كانت هذه المعادلة الصعبة بين المثال والتاريخ هى شغل شيللر الشاغل طيلة حياته. ومازالت تلك المعادلة الصعبة تثير كثيراً من الجدل فى مجتمعنا العربى المعاصر.

تقرب فكرة "العظمة الألمانية" و"المثالية الألمانية" أيضا عالم شيللر الى القراء العرب عن طريق المشاعر الوطنية الإيجابية التى حاول بها تجاوز حاضره الحزين والتى سادت فى السنوات الأخيرة من حياته. فقد احتل نابليون المانيا وجزءاً كبيراً من القارة الأوروبية بعد أقل من خمس سنوات من خروجه من مصر عام 1801 ، وقد أثار الإحتلال وحروب التحرير المشاعر الوطنية لكافة الطبقات آنذاك. ونرى فى تاريخنا الحديث والمعاصر قرائن عربية عديدة لفكرة "العظمة الألمانية" و"المثالية الألمانية" تكونت فى تاريخ الوطن العربى الحديث لتكون متنفساً طوبويا من الإستعمار السياسى والقهر الإجتماعى. كذلك يتقارب تقييم شيللر ومعاصريه من تقييم كثير من المؤرخين العرب لشخصية نابليون ولسياسته. ففى العالم العربى أيضا تنقسم الآراء حول مآثر ومضار الحملة الفرنسية على مصر بالذات وما ترتب عليها من تطور الوعى السياسى والحقوق المدنية ومن اكتشافات وتسجيلات تاريخية هامة وتكوين الهوية القومية أو من ظلم وعنف واستيلاء على كثير من الآثار.

ويعد الكتاب نموذجا للعرض التاريخى للحضارة من حيث تضافر الأحداث التاريخية الكبيرة والأحداث الفردية العابرة فى صياغة سمات حضارية عامة. فالكتاب يلقى الضوء على حقبة هامة ومتداخلة من تاريخ الحضارة الأوروبية والألمانية لم تتح معرفتها للقارئ العربى بهذه الصورة من قبل. فقد كان محيط شيللر الأدبى يضم أهم أدباء القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر من أمثال كلوبشتوك وڤـيلاند وهويلدرلين ونوڤـاليس وجوته وأدباء حركة العصف والدفع والحركة الرومانسية. وكان يضم أهم مفكرى القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر مثل كانط وهيردر وفيشته وهيجل وشيللينج.

والى جانب التقارب بين بعض عناصر عالم شيللر وبين اهتمامات حاضر العرب اليوم يعرض الكتاب لموضوعات فكرية وقضايا فنية عامة مثل خبرات الإبدع الفنى وتكون وتطور العمل الفنى. وينجح الكاتب فى توضيح أهمية آراء شيللر حول علاقة الحرية بالفن فى عصر الدولة، وأهمية الدور الذى لعبه محبى الفن الذين كفلوا معيشة شيللر بلا شروط مما مكنه من الإحتفاظ بحرية رأيه طيلة حياته. فما نسمعه اليوم من تكرار الشكوى حول اضمحلال دور الفن فى المجتمع يرجع حتما الى استبدال مفهوم حرية الفن بمفهوم السياسة الثقافية. إن تلك القضايا الثقافية أصبحت اليوم تهم القائمين على الثقافة فى العالم العربى أيضاً، وليس الفنانين والنقاد فحسب. لقد حلم شيللر أن يكون للمسرح صلاحية قضائية، وأن يظل الفن حراً لأن الحرية بالنسبة لشيللر هى الشرط الأول لإمكانية الإبداع.

هدى عيسى